

# فَلَادِ فَلَادِ

- ١ -

كانت العيادة تتكون من صالة ضيقة وغرفتين صغيرتين جداً.. على باب إحداهما تقرأ كلمة - الطبيب - والى جوارها استقرت كلمة - ديناران - بشكل باز.. وعلى الجدار المقابل تطالع صورة معلقة وهي تسبح في يم من الأتربة والغبار المتراكم . الصورة تمثل رأساً وقد استقر فيه مسمار كبير.. الرائحة المنبعثة من التواليت لا تحمل للمرء غير الاشمئزاز والنفور.. وهناك تجد اريكتين كان الدهر قد أكل عليهما وشرب ، وتخالهما قد وجدتا أصلًا لشيء غير الجلوس .. الصالة بدت كالحالة معتمة من جراء تراكم الأتربة والغبار.. آثار المارة كانت مرتسمة على أديمها .. وعند الباب كان ينتصب فراش بشاربه الطويل المتبدلي، كان على الأكثر يعاني السأم والملل. كانت حواجبه الكثة تجعل من عينيه الصغيرتين المفترقتين في اللف والدوران شيئاً يتس في الصغر والغوص في الاعماق..

حين دخل المريض لم يأبه به مما دفعه الى ان يطرح السؤال: أهذه عيادة الدكتور فلان؟

- نعم

ويمجرد ان نطق بهذه الكلمة أدار رأسه فوراً، كان الفانوس المصلوب على الجدار يئن من تراكم الأتربة .. جلس المراجع وكأنه قد اكتشف الجنـة وقال: انتي من جراء الازدحام وأصوات الجيران ومنبهات السيارات المزعجة طلقت النوم والراحة والهدوء هذا إضافة الى البرد الذي صار ضيفي الدائم.

- أما أنا فلست آبهـا بذلك وأنا مرتاحـاً.

قال الفراش هذا قاطعاً على صاحبه الحديث من دون ان يرفع رأسه.

- إنك سعيد هانـي دون شك، ليتنـي أكون في مثل حالتـك، يـبدو أن منطقـتـكم هـادـئـةـ؟

- هـادـئـةـ؟ وهـل بـقيـتـ منـطـقـةـ هـادـئـةـ؟ فـي منـطـقـتناـ حتىـ اـصـواتـ الـاغـنـامـ وـالـحـيـوانـاتـ هـيـ الـاخـرـىـ لـاـ تـنـقـطـعـ حتـىـ الفـجرـ.

- اذن فأنت أسير الكـرىـ ..  
وـخـيـلـ اليـهـ انـهاـ صـفـةـ جـيـدةـ وـنـعـمـةـ،ـ ولـكـنـ الفـراـشـ واـرـدـةـ أـدـارـ بـوـجـهـ نـحـوهـ وـكـانـ يـرـيدـ طـعـنـهـ فـيـ صـدـرـهـ،ـ رـمـقـهـ بـذـاـ حـادـهـ وـأـجـابـهـ بـبـرـوـتـهـ المـعـادـهـ:

- لاـ لـسـتـ كـذـلـكـ،ـ وـلـكـنـ حـينـ اـنـامـ أـضـعـ قـدـمـيـ ؛  
الـوـسـادـةـ بـدـلـاـ مـنـ رـأـيـ،ـ وـأـمـلـاـ اـذـنـيـ قـطـنـاـ وـأـضـعـ عـلـىـ عـيـنـيـ نـظـارـةـ سـوـدـاءـ ..

لـكـنـ حـينـ وـجـدـ الـذـهـولـ وـالـدـهـشـةـ وـعـلـامـ الـعـجـبـ وـاـ تـرـاقـصـ عـلـىـ وـجـهـ الـمـرـيـضـ وـلـكـيـ يـخـفـ منـ توـتـرـهـ قـالـ وـالـابـسـ تـرـسـمـ عـلـىـ شـفـتـيـهـ:

حينـ أـضـعـ قـدـمـيـ عـلـىـ الـوـسـادـةـ بـدـلـ رـأـيـ هـدـفيـ مـنـ ذـلـكـ أـفـهـمـ نـفـسـيـ بـأـنـ هـنـاكـ مـنـ النـاسـ مـنـ تـساـوتـ عـنـدـهـمـ الرـؤـواـنـ وـالـأـقـدـامـ،ـ وـاـغـلـقـ فـمـيـ كـيـ اـتـنـفـسـ الـهـوـاءـ عـنـ طـرـيـقـ الـأـنـفـ..ـ وـهـيـ وـظـيـفـةـ الـأـنـفـ اـنـ عـجـزـتـ عـنـ التـنـفـسـ مـنـ خـالـلـهـ؟ـ رـمـقـهـ الـمـرـيـضـ وـهـوـ فـاغـرـ الـفـمـ وـبـقـيـ لـفـتـرـةـ وـهـوـ لـيـدـ عـيـنـيـهـ،ـ وـاـسـتـمـرـ يـقـولـ:

- وـلـكـنـ مـاـ الـذـيـ يـدـعـوكـ لـوـضـ نـظـارـةـ سـوـدـاءـ عـلـىـ عـيـنـيـهـ،ـ وـأـنـ ثـانـمـ؟ـ

ابـتـسـمـ الـفـراـشـ اـبـتـسـامـةـ عـرـيـضـةـ بـحـيـثـ كـانـ مـنـ السـبـبـ مشـاهـدـةـ اـسـنـانـ كـلـهاـ وـكـيـفـ اـنـهـ رـتـبـتـ بـعـنـيـةـ،ـ وـأـجـابـ بـهـدوـءـ:

- لـكـيـ لـأـرـىـ أـحـدـاـ فـيـ نـوـمـ ..

صـعـقـ الـمـرـيـضـ وـبـدـاـ لـهـ اـنـ يـجـلـسـ مـعـ مـخـلـقـ عـجـيبـ،ـ اـخـذـ يـشـعـرـ بـأـنـ هـذـاـ الـمـتـحـدـثـ يـسـخـرـ بـهـ..ـ لـذـاـ فـقـدـ جـمـعـ قـوـاـ بـسـرـعـةـ وـقـالـ:

- مـاـ الـطـفـ كـلـماتـكـ هـذـهـ!

- دـعـ كـلـماتـيـ جـانـبـاـ..ـ اـنـكـ سـتـنـدـهـشـ اـكـثـرـ عـنـدـمـاـ تـوـاجـهـ السـيـدـ الطـبـيـبـ وـتـسـتـمـعـ إـلـىـ كـلـماتـهـ..

- أـمـوـ حـلـوـ الـكـلامـ مـثـلـكـ؟ـ

- إـنـهـ فـيـ مـنـتـهـيـ الـطـرـافـةـ..ـ تـصـورـ يـتـحدـثـ إـلـيـكـ بـأـحـادـيدـ شـيـقـةـ لـدـةـ سـاعـةـ بـعـدـهاـ يـتـحـولـ إـلـيـكـ قـائـلـاـ:ـ تـفـضـلـ إـخـلـعـ!

- مـاـذاـ؟ـ

انـطلـقـتـ الـكـلمـةـ هـذـهـ كـأـطـلاقـةـ مـدـفعـ مـنـ فـمـهـ وـمـنـ دـونـ انـ يـرـتـبـكـ اـسـتـمـرـ قـائـلـاـ:

- قـلـ أـخـلـعـ ثـوبـكـ وـفـانـيلـتكـ.

وـقـبـلـ اـنـ يـلـفـظـ الـكـلمـةـ الـاخـرـىـ اـنـتـصـبـ وـاقـفـاـ وـقـدـ تـرـكـ بـعـدهـ

جاعنا مراجع يوم أمس.. كان يعاني من إرتفاع في ضفطه،  
ولكن الطبيب زرقه بأبرة أوصلت صرخته الى عنان السماء.  
ردد المريض مع نفسه:  
- ممكـن ذلك .. اما انا فعلـي العكس اعاني إنخـاضـاً في  
الضـفـطـ.

- قسـماً بـذـاتـ اللهـ، انهـ سـيـزـرـقـكـ اـبـرـتـينـ بالـرـغـمـ مـنـكـ..  
واخـيرـاً وـجـدـ المـارـجـعـ نـفـسـهـ عـلـىـ عـتـبةـ بـابـ العـيـادـةـ.  
- اـعـوذـ بـالـهـ العـظـيمـ.

قال ذلك وهو يتحقق ثانية في الصورة المعلقة (هذا الكسلان  
لا تبيطوا به حتى أمر حيوان) ردد المعلم هذه العبارة عن الطبيب  
عندما كان طفلاً..

وأخـيرـاً جـلـسـ عـلـىـ الـكـرـسيـ بـهـدـوـءـ وـمـدـ سـاقـيـهـ بـحـرـيـةـ، وـلـوـ  
كانـ بـمـقـدـورـهـ لـعـمـلـ عـلـىـ مـدـهاـ اـكـثـرـ مـنـ هـذـاـ بـعـثـةـ، الفـ، مـلـيـونـ،  
مـلـيـارـ مـرـةـ، اوـ الـحدـ الذـيـ يـكـوـنـ فـيـ قـدـرـتـهـ إـيـصـالـ رـجـلـهـ إـلـىـ  
وـجـهـ ..

- ٢ -

كان عبوس الوجه مكـفـهـاـ وأـوـشـكـ أـنـهـ انـ يـلامـسـ شـعـرـ  
رـاسـهـ، وـحـينـ فـتـحـ الـبـابـ لـلـمـرـةـ الثـالـثـةـ أـدـارـ رـاسـهـ وـهـوـ فـيـ مـنـتـهـيـ  
الـسـائـمـ، كـانـ يـتـمـنـيـ أـنـ لـاـ يـرـىـ اـحـدـاـ وـاـنـ يـصـبـحـ جـزـءـاـ مـنـ هـذـهـ  
الـجـدـرـانـ الـبـالـيـةـ الـمـغـبـرـةـ.. وـقـعـتـ عـيـنـاهـ عـلـىـ أـحـدـ الـمـرـضـيـ وـكـانـ  
يـعـانـيـ مـنـ بـعـضـ الدـمـاـمـلـ.. مـدـ يـدـهـ وـتـنـاـولـ اـنـبـوبـ طـوـيـلـاـ (بـأـدـخـالـ  
هـذـاـ اـنـبـوبـ فـيـ بـطـنـ الـمـرـيـضـ يـمـكـنـ التـعـرـفـ عـلـىـ مـاـ يـعـانـيـهـ مـنـ الـمـ  
فـيـ الـمـعـدـةـ اوـ الـكـبـدـ اوـ الـمـارـاـرـةـ).. حـينـ رـأـيـ الـمـرـيـضـ نـوـعـيـةـ اـنـبـوبـ  
قـالـ:

- يـبـدـوـ انـكـ تـنـوـنـ تـشـيـيدـ بـنـاءـ ماـ؟!

- بـفـ

قالـهـ بـأشـمـئـازـ .. ثـمـ أـضـافـ.

- مـاـلـنـاـ وـتـشـيـيدـ الـبـيـوتـ.. بـفـ.. وـحـتـىـ لـوـشـاءـ اللهـ وـطـرـدـوـنـاـ  
مـنـ هـذـاـ السـرـدـابـ.

- للـدـكـتـورـ عـلـىـ مـاـ أـعـتـقـدـ..

أـظـهـرـ حـرـكـةـ مـنـ شـفـتـيـهـ دـلـالـةـ عـلـىـ الـهـزـ وـالـسـخـرـيـةـ..

- عـجـيبـ ! اـنـهـ يـمـلـكـ ثـلـاثـ.. اـرـبـعـ طـوـابـقـ..

- وـلـكـنـ قـلـ لـيـ مـنـ تـنـتـفـ هـذـاـ اـنـبـوبـ؟

- لـلـسـيـدـ الـطـبـيـبـ.. اـيـ مـرـاجـعـ يـأـتـيـهـ يـدـخـلـ فـيـ بـطـنـ هـذـاـ  
اـنـبـوبـ مـنـ خـلـالـ فـمـهـ، وـعـنـ طـرـيقـهـ يـشـخـصـ الـمـرـضـ..

آثارـاـ عـلـىـ الـأـرـيـكـةـ..  
سـأـلـهـ الـفـراـشـ:  
- الـأـينـ؟  
- الـبـيـتـ اـنـتـيـ شـفـيـتـ مـنـ الـمـرـضـ.

- ٢ -

كان سارحاً في عالم خياله وانسنت أهدايه القاتمة  
الكثيفة بمرارة وهو يتذكر الايام الغابرية حين كان طفلاً يلعب  
ويلهو مع السيد الطبيب في المدرسة آنذاك.. كان المعلم (ومن  
رأسه بأسف) يطبطب على ظهره بيده ويمرر أنامله في طيات  
شعره الوسخ مردداً:  
انك أذكى منهم كلهم، نعم أذكى منهم، وعليك ان تتخذ من  
الفقر سلماً نحو المجد.. كلما كان يتذكر ذلك الموقف ينتقل بصره  
إلى الصورة المعلقة ويتراهى له ان الرأس ليس إلا رأسه وقد دقت  
فيه المسامير.. حين سمع صرير الباب تناول حقنة ووضعها على  
النار بسرعة.. جلس المراجع وقال:

- يـبـدـوـ انـكـ تـعـدـ حـقـنـةـ لـلـمـرـيـضـ الـمـوـجـودـ دـاـخـلـ الـغـرـفـةـ.  
«عـفـواـ يـاـ اـسـتـاذـ، اـنـ كـانـ الـفـقـرـ يـتـحـوـلـ إـلـىـ سـلـمـ فـاـنـهـ يـقـودـ  
إـلـىـ الـحـضـيـضـ».  
- مـاـذـاـ؟  
- لـاـ يـاسـيـدـ .. لـاـ شـيـءـ.  
- يـبـدـوـ اـنـهـ طـبـيـبـ مـثـالـيـ.. فـهـوـ لـاـ يـشـبـهـ الـآخـرـيـنـ.. أـقـصـدـ  
الـذـيـنـ يـسـتـعـمـلـونـ الـأـبـرـةـ ذـاتـهـاـ مـعـ عـشـرـاتـ الـمـرـضـ.  
- لـاـ يـاـ أـخـيـ.

قالـهـ بـعـدـ انـ إـسـتـادـ نـحـوـ قـلـيلـاـ ثـمـ حـدـقـ فـيـ بـعـيـنـيـهـ  
الـفـائـرـتـيـنـ الـذـكـيـتـيـنـ وـاـسـتـمـرـ قـائـلـاـ:  
- أـنـ جـنـابـ الـطـبـيـبـ لـاـ بـدـ اـنـ يـزـرـقـ مـنـ يـرـاجـعـهـ اـبـرـةـ فـيـ  
الـأـقـلـ.

- مـاـذـاـ؟.. كـيـفـ؟.. مـاـذـاـ تـعـنـيـ؟..  
- وـلـكـنـ اـيـ نوعـ مـنـ الـحـقـنـ ذـاكـ.. يـزـرـقـهـ حـتـىـ الـعـظـمـ.  
هـذـاـ غـيـرـ وـارـدـ.. فـهـنـاكـ الـمـرـيـضـ الـذـيـ لـاـ يـحـتـاجـ إـلـىـ الـحـقـنـ.  
- لـاـ يـاـ اـبـنـ الـعـمـ.. فـهـوـ يـرـميـ بـسـهـمـ..  
- وـلـكـنـ لـاـ يـجـوزـ ذـاكـ.. لـاـ يـجـوزـ يـاـ أـخـيـ.. فـأـنـاـ مـثـلـ أـعـانـيـ  
مـنـ الضـفـطـ وـالـمـسـأـلـةـ لـاـ تـحـتـاجـ إـلـىـ زـرـقـ الـأـبـرـ.

## ترجمة

محمد صابر محمود خطاب

قصة قصيرة للقاص الكروي: عبدالله السراج  
منشورة في مجلة «بيان» العدد 88 لشهر تموز من سنة 1983

# الغرفة رقم ١١

- كان السائق كهلاً بديناً. عينان ذواتاً رمّش. معطفٌ قصيرٌ مبَعِقاً مربعة. جُمِشتُ (فضيلة) بطرفٍ من سبابتي:  
الا يشبه ملحفة الخالة عائشة؟
- أنزلنا عند مغيب الرصيف. عيوننا حَبَتْ. شعارات الشوارع ذات الألوان الزاهية كانت تقطّر بسماتٍ ووعوداً، أمّا الطرق المستقيمة فكانت تتقدّل الواناً شتّى من السيارات.
- قلتُ: فلنسرع إذن لأنّ ليل (بغداد) يتقى الظلمة.
- الدرجات كانت تتواحد وتتعلو صُعداً، ونحن - معها - كنا ندور وننسعد. انفاسنا كانت ان تقطع. من وراء منضدة. فمٌ شبيه بالآلة «لا مَكان لدينا» ادار وجهتنا نحو الأسفل. مرّة أخرى، في هذه الجهة وفي الجهة الأخرى من الشارع، فندق «سهرجنار»، «مصطفى»، «سيروان»، «باواجي»... إلى أن استحالت «لا مكان لدينا» مجرد تلميحات وإيماءات بالرؤوس.
- يا امرأة ، انفاسي قد تقطعت .
- وأنا أيضاً، أصبُ بالدوار... .
- انتظري، أنتِ هنا.. هؤلاء الجشعون الاوباش لا يأبون منْ لا يعرفونهم.
- تحاملت فسحببت نفسي سحبأً، وبقلب خائر خافق صعدتُ.
- ما زاريت؟ وجهاً متّحجاً. فما مُطبقاً. دلّيْتُ نفسي بانبوب الماء.
- هـ !
- يا امرأة، كانّي بهم صمّ، فهم لا يسمعون ..
- ريقى قد استحال في بلعومي قطعةً من العجين.
- وأنا كذلك.
- ما عدا أولياء الله الصالحين، فليكنْ مآل البقية الخراب.
- آمين. إحملني هذاك.
- هؤذا فندق.. .

أُصيّب المريض بالدهشة وصوب نظراته إليه بانذهال  
وقال:

- ولكن هناك الكثيرين ليسوا بحاجة إلى مثل هذا؟!

- إليك ان تخبر الطبيب بهذا.. فهمت؟

ليكن الله في عنون هذا المريض الذي هو الآن في الغرفة، لقد اضطررت إلى أن أستعين بشخص من الشارع، لقد مسكناه سوية حين أدخل الطبيب هذا الانبوب في بطنه.. لiet الذي أصاب هذا المسكين يصيب اعدائي، اما عن الآلام والعطاس والسعال فحدث ولا حرج.. لقد كانت الآلام تسيل من فمه وانفه ويصله مثل الحيوان وكادت عيناه ان تخرجان من محاجرهما.. لقد أغغمى عليه من شدة الألم وليس ببعيد انه قد عاد إلى وعيه الآن.

حرك المريض نفسه ململماً شتات قوته وقال:

- هذا الانبوب غير مخصص لي.. فأننا أشكوا من البواسير..

وضع الفراش يده على أنفه وكأنه لم يشعر برائحة التواليت قبل الآن وقال:

- بواسير ! .. اذن انت تشكو من البواسير؟ فليكن الله في عنوك.

وعندئذ لم يُمْكِن المريض نفسه وما استطاع ان يفعله في الحالة هذه هو النهوض بسرعة والركض نحو الباب.

بعد فترة خرج الطبيب من الغرفة ووجهه مغطى بثياب ممل.

- اذا ما بقينا على الحالة هذه فسيكون التشرد مصيرنا.. تُرِى هل قُضيَ على المرض ولم يبق مريض في هذه المدينة؟ الافضل ان نخلي الساحة..

قال هذا وبعدها غادر العيادة .

قال الفراش بعد ان نهض مسرعاً وقد إرتسّت على محياه مسحة من الشجاعة والقوة.

- تصاب بالأفلام ام لا .. هذا لا يهمني .. هيأ اغلقتها.. قسماً بالله انتي ساكتب اسمي بدل اسمك.. ولم لا؟ فأنا قادر على إعطاء الدواء للمرضى مثلك انت، واذا ما سببتك موت أحد منهم فأن الله سيعفو عنني يوم القيمة.

نظر إلى الصورة والجمجمة، ومد يده لكي يطفئ النور ولكنه وقف فجأة واتجه صوب الباب.

\* \* \*